الفصل العاشر

بيان من حكم مصر من أمة محمد إلى عهد آل عثمان أى إلى عهد السلطان محمد الرابع، ومن خرجوا إلى مصر ليكون لهم الملك فيها وأسماء هؤلاء وألقابهم ومدة حكمهم

إن الباعث على تأليف هذا الكتاب هو عرض ما ذكر مؤرخو الروم وأهل العلم، ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1]، وبناء على توجيه هذه الآية الكريمة، جعلت بداية الكلام فى ذكر أبى البشر آدم من لدن هبط على أديم هذه الأرض وانتشرت ذريته فيها، وقد استولى على الأرض أولاد آدم، ولكن وقع كثير من الخلاف فى مختلف الأمم وأسلاف الملوك؛ أما فيما يختص بأهل مصر وبلاد الفيوم فالطوائف المتباينة فى هذا البلد شاء الحى القيوم أن يخلقها إظهارًا لقدرته - تعالى - وذلك قبل أن يخلقها ومن أجل أن يجعل من مصر موئلاً لأمة حبيبه محمد ﷺ وأمر بذلك أنبياءه. وما أكثر ما حكمها من ملوك إلى أن دخلت فى حوزة عمر خليفة النبى ﷺ فى العام الحادى والعشرين للهجرة، وكان فتحها على يد عمرو بن العاص الذى امتد حكمه فيها ( )[2] عامًا، وعُمِرَ ( )[3] عامًا، وفى عهده كانت جزيرة مصر مساحتها ثمانية آلاف ميل كجزيرة الإنجليز وهى أرض الغرب، وفى هذه الجزيرة كان الحكم لثمانية عشر ملكًا ضربت باسمهم السِّكَّة[4]، وقد خشوا جانب عمرو فأطاعوه وانقادوا له، إذ إن كثيرًا منهم أغاروا على مصر بَيْد أنهم ارتدوا عنها منهزمين وانتهى بهم الأمر إلى أن يؤدوا الخراج وبذلك قر قرارهم، إذ إن عمرو بن العاص كان قائدًا مغوارًا باسلاً.

وبعد أن انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى أفضى الأمر إلى الخلفاء الراشدين وهم أمراء المؤمنين، وانتهت خلافتهم بالإمام الحسين - رضى الله عنه - وقد انصرف الإمام

(١) سورة الصافات: الآية ١٦٤.
(٢ ، ٣) بياض بالأصل.
(٤) السِّكَّة: النُّقُود.

الحسين عن الخلافة عن رضى وطواعية وتنازل عنها ليزيد بن معاوية، وبما أنه لم يبايع يزيد وجه يزيد بآلاف من جنده إلى الكوفة لمحاربة الحسين، وفى العام الحادى والستين للهجرة استشهد الإمام الحسين واستقل يزيد بالشام ملكًا عليها، أما أبوه معاوية فكان من كتاب الوحى ومن ذوى قربى الرسول ﷺ، وكان ملكًا على الشام فى خلافة على - كرم الله وجهه -.

بنو أمية

إنهم أربعة عشر: أولهم معاوية، وأمه هند بنت عتبة[1] بن عبد شمس، وقبل زواج أبى سفيان منها كانت زوجة لأبى عمرو حفص بن المغيرة المخزومى، وقد ولد لها معاوية. وكان معاوية فى الثامنة والخمسين حين كانت له الخلافة، وتملك تسعة عشر عامًا وثلاثة أشهر، وعاش ثمانية وستين عامًا، وأفضت الخلافة من بعده إلى ولده يزيد بن معاوية وقد هلك عام ستين للهجرة وله من العمر تسعة وثلاثون عامًا وثلاثة أشهر، وقبره فى دمشق.

وفى رواية: أن تيمور نبش قبره ووجد جثته سليمة غضة فأضرم النار فيها. وكانت الخلافة بعد يزيد لولده معاوية، ثم خلفه مروان، ثم عبد الملك، وبعده الوليد بن عبد الملك، ثم سليمان، ثم عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد، ثم هشام، والوليد، وإبراهيم، ثم مروان الحمار، هؤلاء هم جميع خلفاء بنى أمية.

ولقد حارب مروان الحمار على شاطئ نهر الفرات ولحقت به الهزيمة، فانطلق إلى مصر هاربًا وفى ديار مصر على الشاطئ الغربى لنهر النيل فى قرية أبو صير قبالة مصر القديمة قطع عنقه عامر بن الجرجانى وعبد الله بن مازن وأُرسلت رأسه إلى أبى مسلم، وبذلك انقرضت دولة بنى أمية.

ودامت دولتهم إحدى وتسعين سنة وقد ملكوا عراق العرب وعراق العجم، ومصر وبلاد المغرب، ومائة بلد، وكان أبو أيوب الأنصارى قائد جيشهم إلى القسطنطينية، وامتلكوا نصف القسطنطينية، وقد كَتَبْتُ تفصيلاً عن ضريحه الشريف، وانتقلت الخلافة من بعد إلى بنى العباس، وتربعوا على العرش ( )[2] عامًا.

(١) فى الأصل: عينية، والصواب ما أثبتناه.

(٢) بياض فى الأصل.

أوصاف دولة بنى العباس

إنهم سبعة عشر: أولهم المستنصر بالله الذى كان له ملك مصر، وكان الملك فى بغداد لعشرين من العباسيين، وثلاثون منهم سكنوا مصر، وانقرضوا بالمعتصم، وأولهم عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ومدة خلافتهم جميعًا خمسمائة وأربع وأربعين سنة، أما المنقرضون فى مصر من آل العباس فانقرضوا بالمتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب، وفى عهد السلطان قلاوون دامت له الخلافة فى مصر إحدى وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام، وفى عام سبعمائة وعشرة للهجرة لم يكن حكمه نافذًا، وقد عدم حياءه، ولم يأت خليفة من العباسيين يشابهه فى سفاهته وانتهى أمره بأن قتلته أخته.

ولقد بلغ هولاكو بغداد بإيعاز من نصير الدين الطوسى، وبعد أن استشهد المعتصم بالله كان المستنصر هذا فى بادية العرب فى صحراء بغداد، ولم يستطع بلوغ بغداد خشية التتار، فهام على وجهه شريدًا، ولكن دعاه الظاهر بيبرس إلى مصر، وفى عام ستمائة وتسعة وخمسين استقل بمنصب الخلافة فى مصر، وبايعه الظاهر بيبرس وأعيان مصر قاطبة، وأصبح صاحب السكة والخطبة، ومضى إلى دمشق بجيش عظيم تحت إمرته، وحينما غادر دمشق إلى بغداد أسند حكم مصر إلى الظاهر بيبرس، وبلغ بغداد فابتهج العباسيون بمقدمه وأقام الحاكم بأمر الله العباسى مرة ثانية فى قلعة الكبش فى مصر خوفًا من بطش هولاكو خان. وعاش إحدى وأربعين سنة فى مصر وله الخلافة فيها، وفى عام سبعمائة وتسعين ولد فى مصر ولده المستكفى بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله، وسكن قلعة الكبش التى سكنها أبوه، وتربع على سرير الخلافة، إلا أن مقاليد الحكم كانت فى يد الظاهر بيبرس، وجرى قضاء الله وحكمته أن تقع الجفوة بين المستكفى بالله بن الحاكم بأمر الله والظاهر بيبرس بسبب وقيعة؛ فَرَحلّه مع أسرته إلى مدينة قوص فى الصعيد الأعلى، وهناك أدركته الوفاة فى عام سبعمائة وسبعة وثلاثين للهجرة.

ولما كان الحاكم بأمر الله على قيد الحياة جعل الخلافة فى ابنه محمد ولقبه المستمسك بالله، إلا أن ابنه هذا مات قبله؛ فأوصى الحاكم بالخلافة لابنه الأصغر أحمد المستكفى

بالله، إلا أن الملك الصالح لم يعمل بوصية الحاكم بأمر الله ورأى أن ابن أخيه إبراهيم هو بالخلافة أجدر، ولقبه الواثق بالله، إلا أنه كان صاحب لهو ولذلك نُفِيَ إلى قوص وأصبح ابنه محمد خليفة، وكان كذلك سفيهًا فنُفى إلى قوص، وهؤلاء الخلفاء مدفونون فى قوص.

ومن بعدأصبحت الخلافة فى مصر ثلاث عشرة سنة لأحمد المستكفى بالله سليمان، وفى عهد الملك الصالح بن الملك الناصر مات بالطاعون عام سبعمائة وثلاثة وخمسين وهو مدفون بجوار السيدة نفيسة، ثم كانت الخلافة من بعده فى مصر للمتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله أبى بكر.

وفى عام سبعمائة وثمانين كانت الخلافة لبرقوق من الجراكسة وطالب بالسلطنة فخلع المتوكل من الخلافة، فسجنه فى قلعة الجبل وأقام فى سجنه ستة أعوام ثم أطلق برقوق سراحه وجعله خليفة.

وفى عام ثمانمائة وسبعة وتسعين أرسل السلطان العثمانى يلدريم با يزيد رسولاً إلى الخليفة المتوكل هذا، وطلب منه الإذن بالبيعة تبركًا، فدعى الخليفة الله للسلطان يلدريم بايزيد قائلاً: بارك الله فى السلطان يلدريم، وأهدى إليه سجادة مع صحيفة. ودام سجن هذا الخليفة وخلافته وعزله خمسة وأربعين عامًا وتوفى فى عهد السلطان فرج بن برقوق ودفن إلى جوار السيدة نفيسة. إلا أن أحوال مصر والشام اختلت فى عهد الخليفة المتوكل هذا.

وفى عام ثمانمائة وستة عشر خَرِبَ تيمور خان الشام، وانخفض منسوب النيل ولم يكن له فيضان، فأصاب الناس قحطٌ عظيم، فثارت الفتنة ووقع الفساد وآلت الخلافة بعد ذلك إلى الواثق بالله عمر بن إبراهيم بن المستمسك بالله ابن الحاكم بأمر الله، ووافاه الأجل عام سبعمائة وثمانية وثمانين للهجرة، وهو مدفون فى ضريح السيدة نفيسة، ودامت الخلافة من بعده للمقتصد بالله داود ابن المتوكل على الله محمد اثنتين وثلاثين سنة.

وفى عام ثمانمائة وخمسة وأربعين توفاه الله وشهد جنازته السلطان جيقماق، ودفن بجوار السيدة نفيسة، وكانت الخلافة من بعده للمستكفى بالله سليمان، والمتوكل على

الله محمد، ولكنه ظل خليفة تسعة أشهر ليس إلا، وشهد جنازته السلطان جيقماق وأخوه المقتصد بالله مدفون فى ضريح السيدة نفيسة، وهو كذلك مدفون فى هذا الضريح، وأصبح الخليفة بعده القائم بأمر الله حمزة ابن المتوكل على الله محمد، وبعد خمسة أعوام غضب عليه سلطان مصر إينال فنفاه إلى الإسكندرية، وبها توفى سنة ثمانمائة وثلاث وستين، وأخوه المستعين بالله مدفون بجواره فى الإسكندرية، ودامت الخلافة للمستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله محمد خمسة وثلاثين عامًا.

وفى عام ثمانمائة وأربعة وثمانين شهد السلطان قايتباى جنازته، ودفن بجوار السيدة نفيسة فى مقبرة سائر الخلفاء العباسيين، ودامت الخلافة للمتوكل على الله عبد العزيز ابن يعقوب بن المتوكل على الله تسعة عشر عامًا، وتوفى عام تسعمائة وثلاثة فى عهد السلطان الناصر محمد قايتباى ودفن بجوار السيدة نفيسة.

ولقد عاصر المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب فاتح مصر ساكن الجنان السلطان سليم، ومضى مع السلطان سليم إلى اسطنبول وأعزه كثيرًا وأكرمه، وتوفى السلطان سليم، وبعده أكرمه وأجلَّهُ السلطان سليمان إلى أبعد غاية، وفى أول خلافته تقلد السيف منه فى جامع أبى أيوب الأنصارى وتلقى منه البيعة وجلس سليمان على العرش وذلك لأنه ـ أى الخليفة المتوكل ـ من خلفاء العباسيين القدامى.

ولحكمة الله حينما بلغ المتوكل نعى أبيه المستمسك قدم مصر معززًا مكرمًا بإذن من السلطان سليمان، وخلف أباه فى الخلافة. وكانت خلافته ثلاثة وعشرين عامًا، وتوفى عام تسعمائة وثمانية فى عهد ولاية داود باشا ودفن بجوار السيدة نفيسة، وبوفاته انقرض خلفاء بنى العباس فى مصر وهم سبعة عشر خليفة ودامت خلافتهم ستمائة واثنين وثلاثين عامًا.

وخلفاء بنى العباس فى مصر كانت لهم مرتبة شيخ الشيوخ، ولكن الحل والعقد والضبط والربط كان فى أيدى الجراكسة، والمنح والمنع وتدبير الأمور فى يد الجراكسة منهم وكانوا يبايعون وحسب. ويُسمى الواحد منهم خليفة رسول الله ﷺ وبعدهم كانت:

الدولة الطاهرية

وهم فى خراسان خمسة:

أولهم طلحة الخليفة، والخليفة عبد الله، والخليفة على، والخليفة محمد، ومدة حكمهم ثمانية وتسعون عامًا، لم يملكوا مصر وجاءت بعدهم:

الدولة الصفارية

وكان فى حوزتهم ديار خراسان وبلخ والعراق وأصفهان، وهم تسعة، إنهم عبارون لهم الشهرة بالنجدة والبسالة، وحكموا اثنتين وخمسين سنة، لم يملكوا مصر، وبعدهم قامت:

الدولة السامانية

وهم تسعة أولهم إسماعيل السامانى، ثم أحمد، ثم نصر، ثم نوح ثم عبد الملك، ثم المنصور، ثم نوح، ثم منصور، ثم عبد الملك، وبدلاً من سلطان وخليفة يقال لهم سامان والجمع سامانيان (أى السامانيون)، وحكموا بلاد ما وراء النهر وخراسان والصين، وجاءت بعدهم:

دولة بنى آل زياد

وكان لهم ممالك خراسان، وجرجان، وطبرستان، والعراق، حتى إن أنو شيروان عزم على أن ينطلق من بغداد إلى مملكتهم فى اليمن، ولكن تابعة اليمن يدينون لهم بالطاعة، إلا أنه انثنى عن عزمه، وهم ستة ويقول المؤرخون إنهم العدول: العادل مرداونج، والعادل شمكين والعادل بهسان، والعادل قابوس، والعادل منوجهر، والعادل أنو شيروان، دامت حكومتهم ( )[1] عامًا وقيل إنهم أقاموا العدل فى الناس مثل أنو شيروان العادل، وجاءوا فى عهد الكفرة، وكان عدلهم كعدل أنو شيروان، هذا ما يذكره الناس، إلا أننا لم نقع عليه فى كتب التاريخ وقد عُمر أنو شيروان هذا طويلاً، وجاءت بعدهم:

(١) بياض بالأصل.

الدولة البويهية

وهم سبعة عشر، دام الحكم لهم ( )[1] عامًا، وجاءت بعدهم:

الدولة السبكتكية

(دولة آل سبكتكين)

وهم أربعة عشر، حكموا مائة وستة وسبعين عامًا، وجاءت بعدهم دولة:

دولة آل غوره

وهم خمسة، دام الحكم لدولتهم ( )[2] عامًا، ثم قامت:

الدولة الخوارزمية

وهم تسعة حكموا مائة وستة وثلاثين عامًا، حكموا ممالك (.....)[3] ثم قامت بعدهم:

الدولة السلجوقية

وهم ثلاث طبقات: الطبقة الأولى منهم: ملكت إيران وما وراء النهر، وهم أربعة عشر، ودام ملكهم ( )[4] سنة.

الطبقة الثانية: (دولة السلاجقة الثانية): وهم الذين ملكوا كرمان وعددهم أحد عشر، حكموا مائة وتسعة وخمسين عامًا.

دولة سلاجقة الروم

وهؤلاء أربعة عشر، جاءوا أول أمرهم من بلاد ما وراء النهر، وقدموا إلى ديار اليونانيين أى قره مان، وقونيه وسيواص ـ فملكوها، وهم كيانيو الروم لأن أسماءهم كيقباد وكيخسرو وكيارسلان، وهم سبب رفعة آل عثمان، وسنوضح ذلك فى موضعه إن شاء الله، وجاءت بعدهم:

(١ : ٤) بياض بالأصل.

دولة تاج الدولة

وهم ستة، ولهم ألقاب الملوك آل تاجيان، ملكوا الشام والعراق ودامت دولتهم ( )[1] عامًا. ثم قامت بعدها:

دولة الأتابكة

وهم ستة، حكموا فى بلاد الشام ودمشق، حكموا ( )[2] عامًا، وجاءت بعدهم:

دولة آل عمرية

بعد مرور مائتى عام بعد الهجرة النبوية كان ظهورهم، فتحوا الموصل وجزيرة العمر وآمد وملاطيا، وأقام الأمير عمر ملاطيا حاضرة لدولتهم؛ وهم ثلاثة: أولهم الأمير زياد ثم ابنه الأمير لقمان، ثم ابنه الأمير عمر فاتح ملاطيا. ثم قامت:

دولة الأتابكة الكبرى

وهم ستة: أولهم نور الدين الشهيد، وبينما كان الكفار يدبرون لنبش قبر النبى ﷺ كان نور الدين هذا سلطانًا، وقد رأى النبى ﷺ فى المنام يقول له: هلمّ يا نور الدين وذُدْ عن حُرمة قبر رسول الله، واقتل الكفار. فأحاط نور الدين الشهيد الروضة المطهرة بصناديق مملوءة بالحديد والنحاس والرَّصاص، ونور الدين الشهيد بن آق سُنْقُر البُرْسُقى أول مَنْ أقام قلعة للمدينة المنورة.

وقد ملكوا الشام والعراق وأذربَيجان والبصرة والحسا وسيس وترسوس وأطنه. وانقسم الأتابكيون ست فرق، كل فرقة منها تتألف من ستة عشر، وأولهم:

الصلاحيون

الذين لحقوا بخدمة نور الدين الشهيد، ولقد استولى فرنجة إسبانيا على دمياط ورشيد فى مصر، وأغاروا وسلبوا ونَهَبُوا، فاستنجد المصريون بنور الدين الشهيد، وأمَّر نور الدين الشهيد الأمير أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على جيش قوامه مائة ألف مقاتل استخلص عسقلان ويافا ورشيد ودمياط من أيدى الكفار،

(١، ٢) بياض بالأصل.

وقد أعجب أهل مصر كـل الإعجاب بنجدة وشجاعة صلاح الدين فـحكم مصر، ولم يضرب السكة ولا قرأ الخطبة باسم سيده نـور الدين، وبينما كان صلاح الدين يأمر بأن تقرأ الخطبة باسم الخليفة المتقى فى بغـداد، مَر ذلك بمسمع نور الدين الشهيد فى دمشق فأخذه شديـد الأسى، فاستدعى يـوسف صلاح الدين هذا إلـى دمشق، إلا أن صلاح الدين خاف الذهاب إلى دمشق فانتحل المعاذير، وفى عام خمسمائة واثنين وسبعين شيّد القلعة الداخلية فى مصر بمال الغزو وأحاط القاهرة من جوانبها الأربعة بسور طوله تسعة وعشرون ألف وثلاثمائة ذراع وهو إلى الآن بادٍ للـعيان، وبعد ذلك توفى نور الدين فى دمشق واستقل صلاح الدين يوسف هذا ملكا بملك على مصر كما ملك دمشق وحلب، وجعل فى مصر من رعـاياه سبعة عشر ملكًا، وفى زمان خـلافة صلاح الدين وفى عام خمسمائة واثنين وستين شن حربًا شعواء عـلى الفرنجة فى مرج العيون، ولها أخبار فى جميع التواريخ، وأقام مدرسة عظيمة فى مصر بالإمام الشافعى بأموال الغزو.

وطبقة أخرى من الأتابكة هى:

دولة آل أيوب بن شاد الكردى

يقول بـعض المؤرخين: إن صـلاح الدين من الأيوبـيين، وهم سبـعة: منهـم الملك الأشرف خليل بن قلاوون الـذى حاصر قلعة عكا أربعة وأربعين يومًـا، وفتحها بحرب ضروس، وحتى لا يستولى الكفار على عكة هدم قلعة عكا من أساسها، وسوف نكتب عنها من بعد، وبعـده دفن الملك العزيز عثمان بن الملك النـاصر صلاح الدين فى جامع صلاح الدين، وهو من آل أيوب، وبعده كانت الخلافة للملك الكامل، ثم أصبح الملك الأشرف خليفة، وفـى زمنه استولى الفرنجة علـى جميع القلاع التى على سـاحل البحر وسلم القـدس للفرنجة صلـحًا، وكان ذلك عام ستمـائة وخمسة وثلاثـين، فكان ذلك افتضـاحًا، ومات من ألم فـى رأسه وهو فى السـتين من سِنيّه، وجاء من بعـده الملك الصالح نجـم الدين أيوب الذى دفن فى مصـر. وبعده آل الأمر إلى الملكـة شجرة الدر والمماليك البحرية، وهم ثمانية وثلاثون، دامت دولتهم مائة وستة وثلاثين عامًا.

وجاء من بعدهم:

دولة الجراكسة

إن الملك المنصور سيف الدين قلاوون ولى نعمة الجراكسة والأباظية، والجراكسة يقال لهم المماليك البرجية، وبعده الملك الكامل محمد كامل، الذى توفى فى المنصورة وله من العمر ستون عامًا، وحُمل نعشهُ من المنصورة ليدفن فى جامعه فى القاهرة، وفى مصر بين القصرين شيد أربع مدارس للمذاهب الأربعة، كما شيد قلعة فى جزيرة الروضة وأثرها ما زال باقيًا، وحينما توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب والد الملك المعظم توران شاه فى المنصورة، كان حسن كيقباد واليًا على كردستان، وأمه شجرة الدر خاتون (وهى التى كست الكعبة حريرًا أسود) وهى التى كتمت سر وفاة الملك الصالح فى المنصورة ثلاثة أشهر. وأرسلت إلى حسن كيقباد بن الملك المعظم رسولاً فى عجلة وخفية، ودخل الملك المعظم مصر بعد ثلاثة أشهر وتربع على سرير الخلافة، وفى عام ستمائة وثمانية وأربعين أعمل القتل فى جميع الفرنجة الذين استولوا على دمياط، وفتحها وقد تمرد على هذا الملك عبيده وقتلوه شهيدًا. فانتقلت الخلافة إلى شجرة الدر والدته، فأمرت بأن تكسى الكعبة حريرًا أسود وذلك خير عظيم لم يتيسر للملوك، وأصبح زوجها أى بك (أيبك) وتلقب بالمعز، وكانت مصر بعد ذلك لدولة:

دولة التركمانيين (آل كمانيان)[1]

وعددهم ستة: وهم كذلك من طوائف الأتابكة، ثم غضب شجرة الدر على زوجها (أيبك) التركمانى لأنه كان سببًا فى قتل ابنها معظم شاه، وتزوج أيبك من ابنة أمير الموصل، فذلت شجرة الدر وحقرت وسقطت منزلتها، وبينما كان أيبك يغتسل فى الحمام تحينت شجرة الدر الفرصة فأمرت جواريها أن يحملن عليه بالسلاح، وحينما اقتحمت الجوارى الحمام يحملن أسلحتهن لم يكن أيبك غافلاً، وكانت عورته بادية فوقف أمام الجوارى وقفة الأسد، وفى تلك اللحظة كانت شجرة الدر تنظر من ثقب فى قبة الحمام، وشاء الله أن تنهدم القبة وتسقط منها بجانب أيبك التركمانى، وقد تهشمت عظامها، ولما رأى ذلك أيبك ترك الجوارى وقتل شجرة الدر إلا أن الجوارى قتلنه، وهما

(١) بياض بالأصل.

الآن دفينان فى قبر فـى «زقاق الخلالين» بالقرب من السيدة نفيسة، وكذلك ولد شجرة الدر الشهيد معظم شاه مدفون فيها.

وانقرضت سلالة الأيوبيين بمعظم شاه هذا، وانتقلت سلطنتهم إلى مماليكهم، ولكن فى تلك الأونة كان لأيبك التركمانى ولد من ابنة أمير الموصل فى الخامسة من عمره، وقيل إن لقبه المنصور، ملَكَ ثمانية أشهر، وفى عهد العباسيين استولى هولاكو التترى على بغداد واعتقلوا المُستعصم خليفة العباسيين، ووضعوا السيف فى سائر أبناء الخلفاء ( )[1] وأرسل إلى مصر، وفى عام ستمائة وسبعة وثمانين فتح بلاد النوبة، وفى عام ستمائة وثمانية وثمانين استولى على طرابلس الشام من الفرنجة وفى شهر ذى القعدة من آخر عام ستمائة وتسعة وثمانين أدركته الوفاة؛ ودامت سلطنتة أحد عشر عامًا وشهرين وعشرين يومًا، وخلفه ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل، واستولى على قلعة عكا من الفرنجة، وفى المرة الثالثة التى قدم فيها الملك الناصر محمد بن قلاوون أصبح السلطان ثانية وذلك فى عام سبعمائة وثلاثة وثلاثين، وفى عهده عُثر على الحاكم بأمر الله فى جبل جوشيد قتيلاً، ومن الأتابكة طائفة:

دولة الأكراد

ومن الأتابكة طائفة انشعبت عنهم دولة الأكراد وهم سبعة، وفى مصر كانت دولتهم غير وطيدة الأركان، وكانت مدة حكمهم ( )[2] عامًا، وكان أعظمهم السلطان محمد أكراد الذى أقام قبة على ضريح الإمام الشافعى وكساها بالرصاص الأزرق، وهم مدفونون مع أمهم عند قدم الإمام الشافعى.

وجاءت من بعدهم:

الدولة القره خاطئية

وهم ثمانية ومن الأتابكة، وحكومتهم فى ولاية كرمان، ودام الحكم لدولتهم

(١، ٢) بياض بالأصل.

( )[1] عامًا، وجاءت من بعدهم:

دولة الأيوبيين

وهؤلاء حكموا اليمن، وهم سبعة، وقد عمروا أرض اليمن وأسلافهم مدفونون فى مدينة مزيب باليمن، وكانت مدة سلطنتهم ( )[2] عامًا، ثم جاءت من بعدهم:

دولة آل ملاح

ثمانية وفى قول آخر إنهم اثنا عشر، حكموا فى مدينة قوهستان، دام حكمهم مائة واثنين وثمانين عامًا، ومن بعدهم:

دولة بنى آرتق

حكمت حلب وملاطيا وديار بكر، وهم خمسة وعشرون، وكانت دولتهم قوية عظيمة، ومن ألقابهم رجل الكلام، وكانت مدة خلافتهم ( )[3] عامًا، و:

دولة آل مروان

حكمت دولتهم ديار بكر والموصل والجزيرة، وهم سبعة حكموا ( )[4] عامًا، و:

دولة بنى مرداس الكلابى

وحكمت دولتهم حلب وعينتاب ومرعش، وهم سبعة، ويسمون دولتهم دولة الأكراد، والآن الأكراد منهم، حكموا ( )[5] عامًا.

وبعدهم جاءت:

دولة آل بنى أسد

وحكمت دولتهم الحلة وتكريت وشهرزور، وهم سبعة وفى كردستان يسمونهم آل شيران، وألقاب سلاطينهم يزدن شير عبد آل شير، ضياء الدين، دام ملكهم ( )[6] عامًا، و:

دولة آل بنى حمدان

ملكوا موصل الحرير واردلان ورومية ودوم دمى، ودمبولى، وهم ستة، دام ملكهم

(١ : ٦) بياض بالأصل.

( )[٢] عامًا.

دولة آل بنى عقيل بن أبى طالب

وهو أخو الإمام علـى بن أبى طالب ـ كـرم الله وجهه ـ، وحكموا الموصل والحلة وتكريت وهم عشرة، ومدت خلافتهم ( )[٣] عامًا، وبعد ذلك زحفوا إلى مصر إلا أن الأمويين سدوا عليهم الطريق، وحاربوهم حربًا شعواء، ولحقت بهم الهزيمة.

دولة التركمانيين

وهم خمسـة كل منهم يلقـب بالأمير، أولهم الأمـير كربُوغا، وفى أنطـاكية حارب الفرنجة ودارت عـليه الدائرة، وذلك فـى عام أربعمائة وخمـسة وتسعين، ونجى بـنفسه ومضى إلى أصفهان ودفن خارج مدينة (خوى)، حكموا ( )[٤] عامًا.

وجاءت بعدهم:

دولة الدَّانِشْمَنْدِيين

ملكوا بلاد سـيواس ونيكسار وبافرة وأماسيـة وقيصرية، وهم سبعة ويـسمى الواحد منهم الملك، أولهم الملك غازى الذى دفن فى قلعة نيكسار وهم أول من حاربوا الروم، وحكموا ( )[٥] عامًا، وجاء بعدهم:

دولة آل قره يوسفيين. أى: (دولة الشياه السوداء)

يسمونهم القره قيونليين، وكانوا ملوكًا عظامًا، وهم عشرة، وكانت لهم السيادة على ديار بكر وأذربيجان والعراق وفارس، تلقب الواحد منهم بالبيك. ومنهم أوزون حسن، ودان بالطاعة لتيـمور، وكان يمشى بجانب ركاب تيمور، وبعد مـوت تيمور هزم حسن هذا أولاده واستولى على الملك، وأصبح ملكًا عظيم الشأن، وأقام قلعة فى أرض الروم سميـت بقلعة حـسن، وبعد ذلـك حارب السلطـان أبا الفتح مـحمد خان الـغازى فى صحراء ترجان حربًا حامية الوطيس، وتعلق معظم جند حسن بأذيال الفرار أمام سيوف جند محمد، وبلغ أوزون حسن تبريز وفـيها أدركه الموت كمدًا، وهو مدفون فى ساحة

(٢ : ٥) بياض بالأصل.

مسجده، ومدت دولتهم ( )[1] عامًا، وجاءت بعدهم:

دولة آل آق قيونليين، أى: (دولة الشياه البيضاء)

وهؤلاء ملكوا كذلك ديار بكر وأذربيجان والعراق، إنهم تسعة ويسمون الواحد منهم (باى)، ولأنهم كانوا ملوكًا مترفين إلى أبعد غاية لقب الواحد منهم (باى)، ومدة خلافتهم ( )[2] عامًا وكانوا طوال حكمهم ملوكًا صالحين عابدين زاهدين متقين؛ وسلالة من آل عثمان تنتهى إليهم، قدموا من ديار ماهان، وفى تاريخ محمد چلبى الأدرنوى أن أوزون حسن منهم، وقال بعضهم إنه من دولة الشاة السوداء، وأنا سميت الاثنين قيون، أى: الشاة، ومن بعدهم:

دولة شاه شاهان إيران توران

وقد أقام دولتهم فى أردبيل الشيخ صفى الأردبيلى، وأول أمرهم كانوا خلفاء فى بلاد العجم وكانت لهم الحكومة والقطبية[3] الكبرى، وبعده الشيخ جنيد وكان هو الآخر قطب أقطاب الآفاق على الإطلاق، وابنه الشيخ إبراهيم خان ابن الشيخ خواجه على بن الشيخ حيدر موسى ابن الشيخ صفى الدين أبو إسحاق الأردبيلى الذى كان أول ملوكهم، وهم إلى عهد الشاه عباس خمسة، ويطلقون عليهم من ألقاب السلاطين لقب شاه، وهم إلى الآن[4] يملكون أذربيجان وإيران، ويلقبون فى اللغة الفارسية خدا وندكار، شاه شاهان، وشه، وشاه، وشاهنشاه، وخسرو، وشهريار، وسرور، وتاجوار، وصاحب قران، وشاه إيران توران، وجاءت بعدهم:

دولة الدريندين

وهم تسعة ويلقبونهم بالملوك المالكون، وكان تحت حكمهم كنجه وسيواس شماقى

(١، ٢) بياض بالأصل.

(٣) القطب هو: الواحد الذى هو موضع نظر الله ـ تعالى ـ من العالم فى كل زمان، وهو على قلب إسرافيل ـ عليه السلام ـ. والقطبية الكبرى هى مرتبة قطب الأقطاب، وهو باطن نبوة محمد ﷺ فلا يكون إلا لورثته؛ لاختصاصه ـ عليه السلام ـ بالأكملية. معجم اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق الكاشانى ص١٦٢. تحقيق د. عبد العال شاهين. القاهرة، دار المنار ١٤١٣هـ.

(٤) يعنى إلى زمن المصنف.

وباكو وباب الأبواب، وهم سنيون متعصِّبون وهم من نسل أنو شيروان، وظلموا وانقرضت دولتهم، ويحكم أملاكهم تارة آل عثمان وتارة شاه جهان، وبعدهم جاءت:

دولة الشام خالدين

وهم كذلك من نسل أنو شيروان وهم سنيون متعصبون، ويسمون ملوكهم الآن (شامخال) أو شامقال وهم فرقة من الأوغوز، ولهم الآن ثمانين ألف جندى، وهم يذكرون آل عثمان فى الخطبة، ومنهم (الأكار) الذين يسكنون جانب شمال جبال البُرُز، ولهم هناك سبع إمارات: إمارات قره بوذاق ومدنهم طَرخُو، وقووز، واندرى، وطابيسران وفى ناحيتهم الشمالية دميرقبو على ساحل بحر الخزر، وفى ناحيتهم الشرقية كنجة وشروان شماقى، وفى ناحيتهم الجنوبية (جهة القبلة) جورجيا، لا تزال سلطنتهم قائمة للآن ومنهم تمير خان وحارب (أيد الله دولته) العجم لأن أقاليم ولايتهم جبال صعبة المرتقى وهم غزاة بواسل، ومن بعدهم:

دولة الأوزبكيين

وألقابهم: «سلطان بلخ وبُخارى وخراسان»، وقد دخلوا فى الدين الحنيف برسالة من النبى ﷺ، وقد ظهر جميع أولياء الله من خراسان، إنهم الآن قوم مؤمنون موحدون، لم يملك أحد منهم مصر، لأنهم يقعون فى الإقليم السادس والسابع، وكل أيامهم حروب مع العجم والهند، وبعدهم:

دولة الجنكيزيين

وفى تواريخ ميرخان أن جنكيز خان تربع على العرش عام خمسمائة وتسعة وسبعين، إنهم اثنتا عشرة فرقة من الملوك، وكل طائفة لهم خمسة عشر ملكًا وملكة، وفى القرم وداغستان طائفتين هما قومى وموغول بوفل وكل طائفة عشروات يملكون مائة ألف جندى، كما أن أقوام القزاق والأوزبك ونوغان وهشوك وموسكو والصين وختا وختن وفغفور ولبقه وبادران الهند والسند والعجم والأتراك التركمان وآل عثمان من التتار المتفرقين. وقول تاريخ تحفة الدول تحفة تاريخية حقًا، وعلى حد قوله إن آدم له صفة التتار، فابتداء أمره حين هبط من السماء كان أول تتارى ازدانت به الأرض، ثم

ظهرت العرب بعد إسماعيل وإسماعيل أول من نطق بلسان العرب، وفى قول إن زوجة شيث جاءت من الجنة وبما أنها كانت حورية كانت تتكلم بلسان الجنة العربى، وكان أبناء آدم يتكلمون العبرية حتى شاع اللسان العبرى لدى إسماعيل وبناء على ذلك لا وجود لكثير من الأقوام غير العرب والتتار.

ولى كثير من سياحاتى فى القرم وداغستان وقالمق ونوغاى وهشدك ودشت وقبجاق (أى صحراء القبجاق) ولم أر قومًا أكثر من التتار وهم موحدون عدا القالموق.

دولة ابناء جنكيز

ملوك إسلام يقطنون سبعمائة وخمسين ميلاً فى جزيرة القرم، ولهم من الجند مائة ألف ومن الخيل مئات أضعاف هذا العدد، ولم تكن لهم عمائر عظيمة أما مالهم فهو الخيل والإبل والغنم، ولقبهم الخان، ووصفه الكيراى، مثال ذلك بهادر كيراى إسلام وغازى كيراى خان، وفى عهد طوخطمش خان كان الاستيلاء على القرم من كفار جِنَويز، والوزير من أقارب اكان أو من إخوته ويسمونه قلغا سلطان، وهم فى مدينة آق مسجد، ويسمون الوزير الأيسر نور الدين سلطان، ويسمون وزيره الأوسط أغا، ويسمون رؤساء عشائرهم شيرين ومنصور وسجوت واولان، واولان هو من ولد لبناتهم، ويسمون طوائفهم العسكرية قِرَاجى، ويسمون قوم القِرم بارداق، وبعد ذلك فتح السلطان با يزيد من آل عثمان اق كرمان وقلعة كلى، وقدم إلى القرم فى البداية منكلى كيراى خان، ودان بالطاعة لآل عثمان، ووفّى بعهده، وقدم العون لآل عثمان، وضرب سكته باسمهم، وقرأت الخطبة أول الأمر باسم آل عثمان، ثم باسم كيراى خان، وهم إلى عهد السلطان محمد خان الرابع عشرون خانًا ولقد رأيت منهم كرمًا وإحسانًا أدام الله دولتهم.

دولة الجنكيزيين فى بلاد ما وراء النهر

وهم كذلك من ذرية الأوزبك، وهم اثنا عشر ملكًا، أدام الله دولتهم إلى الأبد،

وبينما كان هشام بن عبد الملك خليفة فى دمشق أرسل إليهم رسالة فأسلموا، وسلطنتهم الآن قائمة.

دولة الطبقة الثالثة للجنكيزيين

ملكوا إيران وتوران وصحراء قبجاق، والصين والخَتَا والخُتَن، وكانوا ثمانية عشر، وبإيعاز من نصير الدين الطوسى وخيانة الوزير العلقمى أغار هولاكو خان التتارى بمائة ألف مقاتل على بغداد عشر مرات، وقتل المستعصم بالله العباسى، وبينما كان أحد العباسيين فى البريّة فر إلى مصر، وفيها أصبح خليفة كشيخ، وكان هولاكو خان يملك جيشًا عظيمًا. وهم ثمانية عشر، ودامت دولتهم أربعمائة وخمسة عشر عامًا، ومن ألقابهم كذلك (خان).

دولة الطبقة الرابعة للجنكيزيين

آل تيمور الكوركانى (صاحب خروج جهان)

فتح تيمور خان إيران وتوران وصحراء قبجاق والهند والسند ومولتان والصين والماضين وخَتَا وخُتَن وموسكو والبلغار والقرم وداغستان وجورجيا والعراق العربى والعجمى وبلاد الروم والشام. وقد سار فى ركابه أربعون ملكًا وكانوا تحت حكمه.

ولقد أرسل تيمور رسالة إلى يلدريم با يزيد ليكون فى طاعته، فطرد يلدريم با يزيد رسول تيمور، فتوجه إليه تيمور بجيش كموج البحر، ووقعت بينهما حرب شعواء، وبسوء تدبير وزراء يلدريم با يزيد دارت الدائرة عليه فتقهقر با يزيد أمام جيش التتار، وسقط تحت فرسه، وتدحرج على الأرض، وفى التو تجمهر جند التتار على رأس با يزيد فحارب مترجلاً ساعة وفى النهاية مضى إلى الصحراء ومَثُل فى حضرة تيمور، وكلمّه فى جرأة ودار الحوار بينهما وكان يلدريم مستعليًا على الدوام، وشاء الله أن يصاب بالحمى المحرقة ويموت محمومًا، وحملت جثته إلى بروسة، ودفن فى ساحة مسجده، ثم انطلق محمد بن با يزيد يلدريم إلى تيمور انتقامًا منه لأبيه وتعقبه، وفى سهل يسمى طَاشَق لحق تيمور وسلخت جلود جنود التتار، وبما أنه مكث فى هذا المكان سموه (طاشق اووسى) أى: سهل الخصية، وهذا اسم خارج عن حدود الأدب، ثم تعلق تيمور بأذيال الفرار، واتخذ من قره باغ مشتى له.

وقبل ذلك فى الربيع كان قد فتح دمشق واستولى على ألف خزانة مال من خزائن مصر، وبلغ عِزّةَ الهاشم، واستراح هو وجنوده فى ذلك المكان عدة أيام، ثم غادره وبلغ صحراء قطية وأم الحسن ولما بلغ هذا الموضع كان الإعياء قد بلغ مبلغه من عسكره وخيله، وجاء السلطان برقوق سلطان مصر من ناحية ومير فرج من ناحية أخرى من كُرْتبَاى وأنفذوا إليهم الجنود الشجعان كأنهم ذئاب جائعة، وشد جند مصر عليهم شدة فنصبت عظامهم ظاهرة فى الصحراء إلى الآن. فما ملك تيمور مصر وفرَّ منهزمًا ودفن فى مدينة ( )[1] ومدة حكمه ( )[2]. وبعدهم:

دولة الطبقة الخامسة لآل جنكيز أى أولاد تيمور

استولوا على إيران وتوران وحمدان ونَخْشِوَان وأصفهان وكيلان وأذربيجان، وأبناء تيمور واحد وأربعون ملكًا، وكل منهم كان ملكًا على بلد، وهُم ست طوائف. ولكن دبت الفرقة بينهم فتقاتلوا، وكان السلطان اوزون حسن يمشى فى ركاب تيمور، فقتل عدة من أبناء تيمور انتقامًا منه، فأصبح ملكًا استقل بديار بكر والموصل والحلة وبغداد والبصرة والحسا وأذربيجان إلا أن أبناء تيمور المذكورين لم تطل أعمارهم وابنه الأكبر ( )[3] أصبح ملكًا على الهند.

دولة الطبقة السادسة للجنكيزيين

أى: أبناء تيمور كَوركَان ملك الهند والسند

دولتهم قديمة، دخلوا الإسلام برسالة من النبى ﷺ، وهم الآن على مذهب الحنفية، والآن هم ملوك عظام يملكون بلادًا عظيمة. وهم ملوك الهند وبعدهم آل عثمان، وإن كان ملك موسكو كذلك ملك عالمًا عظيمًا، ولكن معظم آل تلك الولايات لا يسكنون المدن لشدة برد الشتاء. والهند بلاد شديدة القيظ، ولكن لطيب جوها هى بلاد عظيمة العمران، ويقال لملوكها (راى). فمثلاً يقال لأكبر راى، أورَنكيزيب راى وبدلاً من أن يقول له الرعايا عند لقائه يا مليكى يقولون له يا (راى). تلك كانت ألقابهم، وفى الهند سبع عشرة مملكة وكل مملكة على مذهب.

(١ : ٣) بياض بالأصل.

دولة ملوك السند

يسمون ملوكهم موغان، مثل موغان سيد، موغان تاد، موغان راى، موغان سرشاد؛ لهم أسماء من هذا القبيل، إلا أنهم الآن يتبعون ملوك الهند وهم يعبدون النار.

دولة ملوك مونتان

وأسماؤهم داد أو مونتان داد وهلاس مونتان. ورعاياهم كثيرة فى الحبشة بسواكن وسهل خرق وموص ويلبسون بيض العمائم، وهم جميعًا عبدة النار ويُسمى ملوكهم مونتان وهم كذلك من أتباع ملك الهند، ودولتهم الآن ممتدة. وهم قوم يعبدون النار والبقرة والفيل والشمس والقمر والشجر، إلا أنهم يقرون بوجود البارى، وإذا ما أوردنا ما جاء عنهم فى كتب التاريخ لطال بنا الكلام، ولا رغبة لى فى أن أكتب شيئًا لا أعلمه فى جزم ويقين ولكنى كتبت ما كتبت بمقتضى سياق الكلام.

ذكر أحوال دولة خاقان الصين

وإن لم يكن لهم من الممالك ما لملوك الهند إلا أن لهم اثنتى عشرة ألف مدينة على ساحل البحر المحيط، ويسمون ملوكهم الخاقان، إنهم لا يخشون الملوك، ورعية ملكهم كثيرة، وإذا ما قدم بحار من بلد إلى بلد قدم التجار سلعتهم هدية إلى الملك، ويقول هؤلاء التجار: نحن عبيد ملك الهند والعجم فيجدون السبيل إلى المثول بين يدى ملك الصين ويشرفون بالتحدث إليه وفى عودة هؤلاء التجار إلى بلادهم يجود عليهم السلطان بأكثر من قيمة سلعهم أضعافًا مضاعفة، ويعود هؤلاء التجار إلى أوطانهم ودولتهم قائمة إلى الآن.

دولة سلطان فغفور

إن مملكة فغفور تمتد إلى عالم الظلام ويقال لكل ملك فغفور، وفى عام (١٠٣٠) ألف وثلاثين استولى قالمق على هذه المملكة، وفى أكثر من مرة قتل منهم مائة ألف فغفورى وأكله، حتى إنه طبخ الفغفور «حجنان» وأكله لأن قوم قالمق أكلة البشر، ومنذ هذا العهد انقرضت دولة الفغفور وهم الآن يحكمون مملكة قالمق.

ذكر أحوال دولة الديالمة

لقب سلاطينهم قاشانيان وهم سبعة عشر على المذهب السنى ومدة حكمهم قرنان من الزمان، وبلادهم ديلم وكرمان وكاشان.

ذكر أحوال ملك بلخ

إنهم ملوك سنيون يلقبون بدارا، وقد ألحق اليونان الهزيمة بملك هؤلاء الدارا بالقرب من الموصل فى موضع يُسمى (قره دره) واستولوا على إيران وأدّى الإيرانيون الخراج لليونان، ودولتهم قائمة وهم ملوك سنّيون.

دولة الأنجوليين

أصبح ملك الآنجولين ملكًا على المغول، ويسمى المغول ملكهم آنجور، وكان فى بلاد إيران، إنهم ثلاثة، وفى عام ٧٠٠ ثار المغول وقتلوا آنجور هذا وهم يسمونه حيدر آنجور واسد آنجور.

دولة آل المظفر

حكموا فارس والعراق وكرمان، وهم ثمانية يطلقون عليهم لقب مظفر، مثل جعفر المظفّر وعلىّ المظفر. دام لهم الحكم مائة عام وخمسة، وهم كذلك من طوائف الملوك.

دولة آل الچوبانيين

حكموا إيران وأذربيجان، وهم اثنا عشر، ويقال للواحد منهم الأمير، ومدة حكمهم ( )[1] عامًا.

دولة الإيلكانيين

حكموا أذربيجان وهم ستة ويقال للواحد منهم قامى، إنهم من طوائف الملوك وكانوا عدولاً، ومدة حكمهم ( )[2] عامًا وبعدهم:

دولة آل كرتباى

وكانت الخطبة للملك كرتباى فى بلاد خراسان وغورستان، وكانوا ملوكًا سنيين، وهم ثمانية، ومدة حكمهم ثمانية وثمانون عامًا.

(١، ٢) بياض بالأصل.

دولة السرابداريين

حكموا سبزوان وخراسان وألقابهم السرابداريون، وهم سبعة، ولكن لا نسب لهم ولا حسب، ولكنهم سرابداريون تغليبًا، وهم كذلك من طوائف الملوك.

ذكر دولة العباسيين

كان لهم الحكم فى بغداد والبصرة ولحسة واليمن والمدينة ومصر أم الدنيا، ودمشق وحلب ومرعش وديار بكر وأرضروم وجورجيا، أما من حكم بغداد فى سالف الدهر فكان يقال للملك منهم كسرى، والجمع أكاسرة، وبعد النبى ﷺ آلت بغداد لدولة بنى العباس، وهم ثلاثون، حكموا خمسمائة وثلاثًا وعشرين سنة وأحد عشر شهرًا ويومًا، والعباس عم النبى ﷺ، وهو العباس بن عبد المطلب إلا أنه يكبر النبى ﷺ بعامين، عاش خمسًا وثمانين سنة، ومات بعد الهجرة باثنين وثلاثين عامًا، وقبره فى المدينة المنورة، ومدفون فى البقيع وأصبح ابنه السفاح خليفة بعده، وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر، وعاش خمسين عامًا، قبره فى الكوفة، وخلفه ابنه أبو جعفر، ثم ابنه أبو عبد الله محمد المهدى، ثم ابنه أبو محمد الهادى، ثم جعفر بن عبد الله وابنه كذلك أبو منصور هارون الرشيد وكانت الخلافة لأربعة من أبناء هارون الرشيد، منهم أبو عبد الله وأبو العباس عبد الله، وأبو إسحاق محمد المستعصم بالله، ومنهم الخليفة المأمون، وقدم المأمون هذا مصر بنفسه وسوَّف فى مصر طولاً وعرضًا وأخرج من الأهرام كنزًا عظيمًا، واستولى منه اليونان على أطنه وسيس ومصص وقره كوركزى وطرسوس وهو مدفون فى ركن مظلم بالجهة اليسرى من جامع النور، والخليفة المأمون مذموم لضعف فى عقيدته، وضريحه لا يُزار، وكان الناس فى عصر بنى العباس يقرأون الخطبة وهم جلوس، ولكن أبا العباس عبد الله السفاح بن محمد بن على بن عبد الله العباس كان يتلو الخطبة وهو واقف وأُخذت هذه السُنَّة عنهم، ويُسمون فى العربية بالخليفة وأمير المؤمنين والأمير، والسلطان، والملك والخاقان، والمؤيد من عند الله وبذلك يمدحون.

والحاصل أن الخلفاء العباسيين فى بغداد أنابوا عنهم فى مصر ثلاثين خليفة وحكموا مصر إلى أن أسقط هولاكو دولة العباسيين بقتله للمستعصم، وفر أبناء المستعصم إلى

مصر، وشيَّد منصور الدوانقى فى عام ثلاثمائة وخمسة مدينة ملاطيا وقدم مكة ووسع الحرم الشريف وأقام منارة، وفى عام ثمانمائة وواحد وخمسين توفّى وله من العمر ثلاث وستون عامًا، وهو مدفون فى المحلة. وفى عهد خلافة العباسيين كان فى سائر البلاد اثنتا عشر طبقة من الملوك وكلهم من سلاطين الإسلام، تضرب السكة وتتلى الخطبة بأسمائهم.

دولة آل ساسان

تسعة، حكموا واحدًا وتسعين سنة ثم:

دولة الديالمة

وهم خمسة عشر، مدة حكمهم قرنان، ثم:

دولة السُّلفريين

وهم خمسة عشر ومدة حكمهم مائة عام وثلاثة أعوام. ثم استولى بعض خلفاء بنى العباس على كردستان وهم كذلك اثنتا عشرة طبقة:

أكراد دول آل عباس

الطبقة الأولى منهم تحكم جزيرة العُمر الواقعة بالقرب من مدينة الموصل ولهم عشرين ألف محارب من حملة البندقية.

والطبقة الثانية منهم عليها سيد خان الذى له من الجند أربعون ألفًا.

أما الطبقة الثالثة لها الحكم فى صوران ولها عشرون ألف مقاتل.

والطبقة الرابعة تحكم أردلان ولها عشرة آلاف مقاتل.

والطبقة الخامسة تحكم الحرير وعدة مقاتليها خمسة آلاف من حملة البندقية.

والطبقة السادسة لها الحكم فى بنيانشى وهم خمسة آلف مقاتل.

والطبقة السابعة تحكم المحمودى ولها ثمانية آلاف جندى.

والطبقة الثامنة تحكم حكَّارى ولها أكثر من أربعين ألف مقاتل من حملة البندقية، وعشرة آلاف فارس، وفى عام ألف وستمائة وخمسة منح اشير باشا الملك أحمد باشا مدينة وان، وبتكليف منه أحضرت خلعة الحكم إلى يزدَن شير حاكم حَكَّارى،

وشاهدت استعراض جنده ومن الحق القول إن الحكاريين جند يطلقون النار بمهارة عظيمة.

أما الطبقة التاسعة فتحكم فى هيزان ولهم عشرة آلاف جندى.

أما الطبقة العاشرة فتحكم تبليس ولهم عشرون ألف مقاتل، وتحت حكمها عشرون عشيرة.

والطبقة الحادية عشرة فتحكم حَضّو واليزيدية.

والطبقة الثانية عشرة تحكم باك ولهم عشرة آلاف مقاتل.

إن هذه الحكومات الاثنى عشرة منذ قانون السلطان سليم لا يولون ولا يعزلون وهم يحكمون هم وذريتهم من قبل الوزراء وبأمر السلطان ويُرْسَلُ إليهم أمرٌ سلطانىٌّ بذلك، وأهل الولايات يسمون الحاكم منهم الخان، ولكن هذه الطبقات السالف ذكرها من ذرية العباسيين، وغيرهم لهم فى إقليم أرضروم وديار بكر ووان والموصل وشهرذل وولاية بغداد مائتان من رؤساء العشائر ويوليهم أو يعزلهم الوالى، ولهم مقاطعات مثل: أكيل، ميافارقين، كارنى، هيرون، اسبير، دوزريقى، باركيرى، وملاذكرد، ولله الحمد فقد سِحْتُ فى كردستان ذات الأرض الحجرية سبعة أعوام، وكتبت عن كردستان ما تحققت من صحته فى كتاب قائم بذاته، ولولا وجود كردستان كسد بين آل عثمان والفرس لما تحقق الاستقرار لآل عثمان لأن الفرس خصم عتى شجاع، والأكراد الذين ملكوا مصر من أكراد العباسيين. ثم جاءت:

دولة الكيانيين

وهم عجم وحكم منهم أحد عشر ملكًا إيران وما وراء النَّهر، ودام الملك لهم ( )[1] عامًا، ثم:

دولة الاشكانيين

وهم سبعة، حكموا فى همدان ودركزبن وأردبيل وحكموا ثمانية وسبعين عامًا، وكان أسلافهم ملوكًا قبل الإسلام، وبعد المأمون أصبح هؤلاء السبعة خلفاء وهم

(١) بياض بالأصل.

أشكانيون، ثم:

دولة آل قروانيين

ستة، حكموا ( )[1] عامًا، ثم:

دولة آل مانيانيين

عددهم ( )[2] ومدة حكمهم ( )[3] عامًا.

دولة آل ساسان

عددهم ( )[4] ومدة حكمهم ( )[5] عامًا.

دولة آل ماهانيين

ظهروا أول ما ظهروا فى بلاد ما وراء النهر، وغادروا ماهان خوفًا من الجنكيزيين، وفى ديار أخلاط كان السلطان أوحده الله وهو جد سلاطين تبليس وقد سكنوا إلى جوارهم، وهم قوم اشتهروا بشجاعتهم، فحمد الأهالى ذلك منهم، وولوهم حكامًا عليهم، ودامت حكومتهم فى أخلاط مائة وسبعين عامًا، وهجروا أخلاط كذلك خوفًا من الجنكيزيين، ودخلوا أرض السلاجقة، وبينما كان قائدهم سليمان شاه يغتسل فى ساحل نهر مراد بالقرب من قلعة جعبر غرق فى النهر، وتولى قيادتهم أرطغرل، وبينما كان أرطغرل فى صحراء قونية صعد جبلاً وبينما كان ينظر من قمته رأى حربًا تنشب، ورأى أن الغلبة كانت للتتار على السلاجقة، فانطلق بسبعمائة مقاتل نحو التتار ورشقوهم بسهام كالمطر، فتقهقر التتار، وبهذا النصر عادت الحياة إلى السلاجقة بعد موتهم، فأعزُّوا أرطغرل وأكرموه وأجلُّوه وأقاموا على عتبته قبة هى قبة البك، وبذلوا له المال الجزيل، وقيل له كل مقاطعة تفتحها إلى جانب بروسة فهى لك وتحت تصرفك، وجعلوه قائدًا عظيمًا، وبأمر الله كان أرطغرل مظفرًا حيثما اتجه، ومع ما غنم من أموال غنم ديار السلطان السلجوقى، وأرطغرل هذا من الماهانيين أجداد العثمانيين.

والآن فى أخلاط فى عهد حكمهم اثنا عشر ضريحًا، وفيها موتاهم على عروشهم، ومعهم أسلحتهم وقد زرتها جميعها.

(١ : ٥) بياض بالأصل.

وقد حكم فى أخلاط من الماهانيين أجداد العثمانيين أربعة وأربعون حاكمًا، والآن ليكن الدوام إلى الأبد لدولة آل عثمان فهى من هذه السلالة الطاهرة، ولها الآن الحكم فى العراق وبغداد ومصر أم الدنيا ومكة والمدينة وبلاد المجر والروم والعرب والعجم وخاقانها سلطان البرين والبحرين، وجميع الخلفاء هم السلاطين المذكورون.

ذكر دولة آل بنى رسول

إنهم خمسة عشر ملكوا اليمن وعدن وصنعاء، ويسمون اليمن جزيرة العرب، واليمن من إقليم عُرْفيّة، ومن الشرق إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الغرب يحيط بها بحر القلزم[1]، وبقية اليمن من ناحية البرية بحر الإحساء، وبحيرة اليمن ويفصل بين الشرق والغرب خط فاصل، أما معنى اليمن ففيه عدة أقوال، منها: أنه إذا اتجه أحد فى اليمن إلى ناحية الشرق فبما أن هذا الإقليم واقع على يمنته سُمى اليمن، وقيل: إن اليمن إنما سميت بذلك لوقوعها على يمنة الكعبة الشريفة.

وكانوا يسمون ملوكها التبابعة فى العصر الجاهلى، والواحد منهم تُبع، ولكن قبل أن يحكم ساداتها كانوا يُسمون الملوك، والآن يُسمون الأئمة.

واستولى العثمانيون على اليمن فى عهد السلطان مراد الرابع، أما الآن فهى على مذهب الزيدية، وقد أشاعوا زواج المتعة؛ فالرجل يتزوج امرأة عدة أيام لقاء أجر، ولها أن تكون من بعده لسواه، وفى إقليم اليمن أربع حكومات وليس بينها وفاق، وساكنو الجبال من الأعراب الفقراء المعدمين، إلا أنهم يحسنون القتال بالبُندقية، وأهل اليمن صلحاء أتقياء ومعظمهم شرفاء ومعظمهم من أبناء الصحابة الكرام، ففى عهد النبى ﷺ هاجر بعض الصحابة إلى اليمن، وظهرت كرامات لأولياء الله فيها.

دولة أشراف مكة. أى: دولة الهاشميين.

وفى حوزتهم الحجاز والطائف والعباس والمدينة ووادى القرى ومدينة ثمود، وقد اجتمع مراراً الأشراف واليمن، وعقدوا العزم على أن يملكوا مصر، إلا أنهم لم يحققوا

(١) هى البحر الأحمر.

بغيتهم، وهم ثمانية وثلاثون وهم حسينيون لهم حسب ونسب، ومدة حكمهم ( )[1] عامًا، ويسمونهم كذلك آل حيدر.

دولة أشراف مكة. أى دولة بنى قِتَادَة.

سبعة وعشرون، ينتهى نسبهم إلى الإمام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ، وبناء على قول هؤلاء الأشراف ـ وهو صحيح ـ أنهم منذ عهد إسماعيل أبناء أنبياء، ويقولون إن أسلافهم بنى جرهم، وهى قبيلة هاجرت من اليمن وقدموا مكة واستوطنوها، وتزوج إسماعيل فتاة من بنى جرهم وولد له منها ( )[2] ولما بلغ الأربعين من عمره أنزلت عليه الصحف بالعربية، ودام البقاء للغة العربية على ما يقال، وهم يقولون هذا معلنين عن ذريتهم القديمة[3].

وفى هذه الممالك المحروسة التى زرناها، كثيراً ما رأينا مئات الألوف من العشائر والقبائل الساكنة الصحارى، كما كان يوجد فى صحاريها وجبالها أمراء ورؤساء لهذه العشائر وقد أمسكنا عن ذكرهم لأنهم لم تضرب لهم سكة ولم تقرأ باسمهم خطبة، ولأنهم كانوا أصحاب سيف وقلم أيَّد الله حكومتهم وأودعهم بطشاً وقوة فيؤدب بهم خليفة الله فى أرضه عبيده البغاه، ويأمن عباده المظلومين من ظلم الطغاة.

إذا غاب السلطان عند بلد فان بيوت المظلومين تكون طعما للظالمين

وقد جعل الله تعالى نفحات الخليفة على عباده أكثر من نفع الغوث الأعظم ورجال الغيب، وإذا لم يكن فى الأرض خليفة، لم يُجر على وجه الأرض عبادات أو طاعات أو إسلام وإيمان وإعتقاد وبذلك يختل الدين المبين. والآية الشريفة ﴿**لَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ**﴾ (الحج ٤٠). هى دليل قاطع على هذا نسأل الله أن يديم الخلفاء فى الأرض. حديث (لولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضا).

* * *

(١ ، ٢) بياض بالأصل.
(٣) أمسكنا عن ترجمة بضع سطور هنا لغرابة ما ورد فيها.
(٤) تحريم الآية (الحج ٤٠).

ذكر أحوال سلاطين مصر القاهرة المعزية

إن أول خلفاء على وجه الأرض منذ ظهور الإسلام هم الخلفاء الراشدون، وهم أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلى ـ رضى الله عنهم ـ ويقال للواحد منهم أمير المؤمنين فى اللغة العربية، كما يقال أمير المؤمنين للإمام الحسن والحسين والأمويين والعباسيين، وأول خليفة من الخلفاء الراشدين ملك مصر عمر بن الخطاب بعد فتح عمرو بن العاص لها، ثم ملكها الأمويون، ثم العباسيون، وهم كذلك طبقتان منهم طبقة فى بغداد أنابوا عنهم ولاةً فى مصر، وطبقة أخرى بعد انقراض العباسيين بغارة هولاكو، وكان أبناؤهم فى الصحراء لدى الأعراب، فجاء بهم الظاهر بيبرس من الصحراء إلى مصر وأجلسهم على مسند الخلافة، وأصبحوا خلفاء مستقلين.

ديار مصر والإخشيديون

وهم ( )[1]، ومدة خلافتهم ( )[2] عامًا، بعد ذلك كان المعز لدين الله القاهر الفاطمى ملكًا عظيم الشأن فى بلاد المغرب، وأعطى أحد مماليكه ـ كان يدعى أزهر وهو عربى من الحبشة ـ عشرين ألف تَيسًا، وحتى لا يُعارض فى مصر أمره أن يطلب الإذن من الإخشيديين فى إقامة جامع فى مصر، ووقع هذا موقع القبول من رجالها، فشرع فى بناء الجامع الأزهر، ومن أجل بناء هذا الجامع قدم مصر كل من كان فى بلاد المغرب من نَحَّات وبَنَّاءٌ، ولقد أفاد الأزهر علماء مصر فائدة عظيمة، حتى إن بناء الأزهر قبل تمامه كان طلاب العلم يجتمعون فيه ولما قرب تمامه ذاع أن معز الدين الظاهر آتٍ إلى مصر، وحشد المعز لدين الله حشودًا من الجند وانتزعها من الإخشيديين، وصلى فى الجامع الأزهر، ويسمونها القاهرة لأن معز الدين القاهر قدم من المغرب وفتحها، وعددهم ( )[3] ودامت دولتهم ( )[4] عامًا.

(١ : ٤) بياض بالأصل.

دولة بنى البحرية

وهم ثمانية وعشرون ودامت دولتهم مائة وثلاثين عامًا، والمظفر بالله بن الحافظ لدين الله الفاطمى قتل مملوك مصر وأصبح بعده أبو القاسم عيسى بن الحافظ لدين الله ملكًا، ولما بلغ هذا الخبر بغداد وسمعه المتقى بالله العباسى ولّى من وزراءه ـ نور الدين محمود بن زنكى ـ المُلك، فقدم فى جيش عظيم واستولى على مصر، ثم حاصر قلعة دمشق وخليفة الشام بحير الدين طُقْتكين الذى كان محاصرًا فى القلعة، وسلم قلعة دمشق لنور الدين محمود صلحًا، وذلك فى عام خمسمائة واثنين وستين (٥٦٢)، وجاءت بعد ذلك.

دولة الجراكسة

وأولهم برقوق وآخرهم طُومَان باى، ملكوا ( )[1] عامًا وأول من كان له مماليك الجراكسة نجم الدين الصالح أيوب، وجملتهم اثنا عشر فارس، كما كان له اثنا عشر ألف اشتراهم، وفى قول إن السلطان فرج هزم تيمور وأحضر جميع عبيده مع ما غنم منه من غنائم إلى مصر، وبقى فى مصر الجراكسة والأبخاز (الأباظية) والجورجيون والروس منذ عهد السلطان فرج، وقد مرّ ذِكر السلاطين الذين ولوا مصر على الترتيب،

أول من ملك مصر من آل عثمان

كان أول من ملك مصر من العثمانيين السلطان سليم، وإن شاء الله سوف نذكر فتح مصر وجميع ما وقع من أحداث.

أول من حكم مصر الفراعنة، ومن طبقاتهم من يعرف بالعزيز، كما قيل إن منهم القبابطة والجمع أقباط، ولما فتح السلطان سليم مصر سُمى خادم الحرمين الشريفين، ومن سماه بهذا الاسم كمال باشا زاده، وأبو السعود افندى، وعندما فتح السلطان سليمان المجر سموه صاحب قران الزمان، وفى عام ٩٢٩ تسعمائة وتسعة وعشرين فتح سليمان خان جزيرة رودس واستولى عليها من نصارى مالطة، وبعد هذا الفتح فتح فى

(١) بياض بالأصل.

البحر الأبيض سبعمائة وستين جزيرة فسماه كمال باشا زاده وأبو السعود أفندى سلطان البرين وخاقان البحرين، وفتح كذلك بغداد فسماه علماء الترك سيد العرب والعجم، ولما فتح طنجة فى بلاد المغرب والجزائر وتونس وطرابلس سموه فاتح المغارب، ولما فتح سليمان باشا الطواشى (الخادم) بإذن من السلطان سليمان سبعة أقطار وسبعة من الموانئ فى الهند سموه فاتح المغارب، وفى ثمانية وأربعين عامًا من خلافته فتح أقطارًا فى سبعة أقاليم، وجعل لآل عثمان نصيبًا من أقاليم الدنيا السبعة أما أول غزاة آل عثمان فهم الأمير عثمان والأمير أورخان والأمير يلدريم والأمير مراد حتى أبى الفتح، ويطلق عليهم جميع علماء الترك أولو الأمر، ولأن أبا الفتح كان يحب العلماء فقد كان يجمع العلماء والمشايخ حوله من الأقاليم السبعة، فقد كان سلطانًا عالمًا فاضلاً كاملاً مجاهدًا فى سبيل الله، عندما اعتلى العرش العثمانى، كان دائم الجلوس بالعمامة (العرفى) وكان يعقد الديوان بها، ولم يرتدى أى سلطان قبله تلك العمامة العرفى، بل كان الملوك من قبله يضعون تيجانًا يعجز اللسان عن وصفها، ولما فتح استانبول كان فى معيته سبعون من كبار الأولياء وعلماء العرب والعجم من العراق وخراسان، وكان فى معيته أيضًا الشيخ آق شمس الدين وأنصار ده ده، والمولا جورانى وأمير البخارى وغيرهم من كبار العلماء وكان بعض علماء الترك المذكورين يطلقون على السلطان محمد الثانى لقب أبو الفتح محمد خان، أما علماء الروم فيطلقون عليه لقب السلطان، أما كل مشايخ العجم فيطلقون عليه لقب خنكار أى صاحب الخبز، نظرًا لكثرة ما أنفق من خبز فى هذا اليوم، وبعد فتح استانبول جمع محمد الفاتح كل الجند فى ميدان الرماية (اوق ميدان) وأولم لهم الولائم العظيمة، وملأ ذيل ثوبه بالخبز، يقدم منه الطعام لجند الإسلام، ولأن العجم يطلقون على الخبز كلمة (خون) أطلق على الفاتح لقب خنكار.

وتذكر إحدى الروايات أن أبو الفتح السلطان محمد أنشأ أثناء حصار مدينة استانبول مائتى فرقاطة فى مكان يسمى مزرعة اللوند، ولضيق ميدان الرماية قام جنود فرقة العزب بناء على رأى القبطان شاه قولى بفتح أشرعة تلك المراكب وأنزلوها إلى المياه بسحبها برًا بالقرب من حديقة ترسخانه، ولا تزال آثار سحب تلك السفن على اليابسة واضحة للعيان فى ميدان الرماية.

وعندما رأى الملك تكفور تلك السفن المشرعة قادمة إليه من البر من قصره الموجود فى مكان يسمى تكفور سراى انقطع أمله هو ومن معه من القسطنطينية، إذ جاء فى كتبهم أن ملكًا يدعى محمد من الأمة المحمدية يأتى على رأسه عمامة يمتطى بغلاً وكل بساطه من الجلد، يرتدى الصوف، وينتعل بحذاء أزرق، يسير السفن على اليابسة ويأخذ القسطنطينية، وهذا مسطور على المسلة الواقعة فى آت ميدان (ميدان الخيل).

وفور رؤية الكفار لمجىء السفن على اليابسة قالوا لنهيئ أمرًا آخر وجرت حكمة الله القادر القيوم بأن تظهر فى سراى بورنو اثنتا عشر سفينة للفرنسيين جاءت مددًا، لأن جميع الكفار كانوا مطمئنين من جهة البحر وقاتلو من جهة البر وكان ملكهم فى قصره الكائن فى اكرى قابى.

أما من ناحية البحر فكانت الطيور لا تستطيع الطيران من ناحيته، وذلك لأن ألف مدفع فى (سراى بورونو) ومائة مدفع فى (قيز قله سى)، وخمسمائة مدفع كانوا يقفون أمام دار المدفعية القديمة فى (غالاطة) والتى تسمى اليوم باسم (كرج قابى). وعندما كان الحقير فى صباه شاهد هذه المدافع أمام (كرج قابى) للاحتفال بالعيدين. ولما وجهه السلطان مراد الرابع حافظ أحمد باشا على رأس الجيش إلى بغداد، أفسد تلك المدافع وصب مدافع صغيرة، وأرسلها بالسفن إلى الإسكندرون حيث ظلت ثلاثة أيام فى قلعة بيره جيك، ثم أرسلها إلى بغداد بالقوارب عبر نهر الفرات.

ولذلك لم تكن الخشية من المدافع المنصوبة فى (سراى بورونو) ولما قدم المدد من سبعة عشر سفينة للروم من ناحية ميناء (بطريق خانه)، وفى موضع يسمى (فنار قبوسى) أطلقوا المدافع والبنادق، فأعلنوا شديد فرحهم، ثم ألقوا مراسى السفن، ولما كانوا فى سيرهم إلى قرى النصارى، أنزل السلطان محمد من ناحية اليابسة مائتين من الفرفاطات تحت إمرة القبطان شاه قولى وكانت وكأنها التنانين، ووصلوا إلى السفن كأنهم البرق الخاطف، وبأمر الله لم تطلق اثنتا عشرة سفينة المدافع والبنادق، وسحبوا هذه السفن الواحدة تلو الأخرى إلى حديقة ترسخانه.

فقال رجالنا إننا قدمنا لنستولى على ما فى حوزتكم من ممالك، وكانت هذه ثلمة فى صفوف الفرنجة أوقعتهم فى فزع ورعب، ونمى خبر الانتصار على هذه السفن إلى أبى

الفتح وكان فى حصار ادرنه قابى وركب زورقًا فى ميناء (يا ودود) ورأى فى حديقة ترسخانه اثنا عشر سفينة تسمى جهنم الحمراء وهى تشبه أصل الجحيم محملة بالغنائم فأخرج منها العشر حسبما يقضى قانون الغنائم، ووزعوا بقية ذلك على الغزاة من المجاهدين.

وفى سفينة من تلك السفن كانت توجد ابنة ملك فرنسا وهى تشبه ضوء الشمس وكانت مخطوبة لملك استانبول، ومعها ألف فتاة من الفتيات الطاهرات من بنات أمّة محمد، أخذهن الكفار عندما أغاروا على غزا وعكا والرملة ليكنّ جوارى لهذه الفتاة وقد أودعن جميعهن أمانة لدى الشيخ آق شمس الدين، وفى نفس الوقت كان أبو الفتح مشغول بحصار القلعة، وفى شهر يوليو من عام ثمانمائة وسبعة وخمسين للهجرة، وفى اليوم الذى حدده الشيخ آق شمس الدين فُتحت القسطنطينية بمشيئة الله وهذا تاريخ مذكور فى تواريخ أخرى.

لطيفة صوفية

بعد ذلك مضى أبو الفتح إلى حديقة ترسخانه وخلع باب قلعة الروح وجعل فيها عسكر النفس، فتزوجها وكانت حكمة الله أن حملت فى تلك الليلة بابنه الأمير با يزيد وبعد أن قضى السلطان الفاتح ليلته هذه مع ابنة ملك فرنسا اغتسل ثم توجه فى الصباح إلى الشيخ آق شمس الدين، لقد أسلت دماء فى تلك الليلة دلالة على زواجه بابنة ملك فرنسا وإنى لأرجو ألا تسفك الدماء إلا فى الحق، وأطعم غزاة المسلمين الذين شاركوا فى فتح استانبول، لتكون تسميتهم لك بخنكار فى موضعها، وقد أطلقوا على السلطان أبو الفتح السلطان محمد لقب خنكار لأنه أطعم غزاة المسلمين وأحسن عليهم بالتيمارات والزعامات.

ولكل ملك ألقاب ولقب آل عثمان سلطان، وخادم الحرمين، وسلطان البر والبحر، وسيد العرب والعجم، وصاحب قران الشرق والغرب، وخنكار والسلام، ولكن أول ما فتح السلطان سليم مصر كان عرب مصر تقول: «الله ينصر السلطان سليم»، ويسمونه فى اللغة الفارسية سلطان بلاد قيصر، ويُسمون ملوكهم سلطان بلاد إيران، ويسمون أمير الحج فى مصر سلطان البر.

وكان جيش العثمانيين يؤدى خدمة عظيمة لحجاج المسلمين ولما كان بين العرب أمراء للأقاليم نزل عليهم كثير من الرحالة ضيوفًا، ويُسمى العرب الواحد منهم سلطان البر أما عرب صحراء الشام فيسمون شيوخهم آل بنى رشيد وآل بنى عمر وآل بنى رباج وآل بنى زهد، أما الآن فيقال لوزراء مصر عزيز مصر والمتولى، ونظام الدولة وكافل مصر ووالى مصر ويسمون كذلك والى مصر (الصوباشى) وهذا المنصب تبقى من عهد الفراعنة وفرعون فى أول أمره كان صوباشيا إلى أن غيّر الملك ثوبه فصلبه فى سوق الصليبة وبعد ذلك أصبح فرعون ملكًا مستقلاً وقال: «أنا ربكم الأعلى»، وبمرور الزمان قلّ لقب صوباشى إلى أن جاء الإمام الشافعى فما وجد فى مصر صوباشى.

حكاية غريبة

قدم الإمام الشافعى من بغداد، ولما وطأت قدمه مصر سرق اللصوص داره، إلا أن كل ما أخرج من مؤلفات لم يَضِعْ، وإن سرقوا مئات منها فاكْتَأَبَ لذلك الإمام الشافعى وأخذه مُرُّ الأسى لضياع مؤلفاته النفيسة. ومضى إلى السلطان محمد سلطان الأكراد، وبسط رجاءه بأن يُعين صوباشيًا على أن يكون شديدًا فقبل رجاءه، فجعل هذا الرجل عالى مصر سافلها، وإن كان مدبرًا، وسديد الرأى، وصاحب فراسة.

واحتفل ذات ليلة فى منزله بالمولد الشريف، ودعا جميع علماء مصر إلى حضور هذا المولد، وأثناء الكلام قال الصوباشى:

لقد سمعتم بأن الإمام الشافعى تكرم علىّ بأن جعلنى صوباشيًا، وهو الآن يطلب منا رشوة فهل يكون المذهب الشافعى حلالاً لنا؟. وأنتم بما أنكم علماء مصر هل ترون هذا الظلم جائز؟ وهل جميع علماء مصر على المذهب الشافعى؟ قال هذا وفى قلبه مرارة. فقال علماء مصر فى التو: يا أيها الوالى خذ حذرك ولا تقدم فلسًا ونحن لا نقبل مذهبه وهو مذهب صاحب تفسير جرير، وقد شئنا أن نسرق كل ما لديه من كتب ونحرقها جميعًا بعد بضعة أيام كما نريد رجمه أو ننفيه إلى السودان.

وقد تلقى الصوباشى هذا بأدب وقال: يا أيها النقباء ويا أساتذتى أتموا المولد والآن خذوا صرتكم وعطيتكم. ومضى يتجول فى المدينة بحجة الحراسة، ثم انطلق إلى السلطان محمد سلطان الأكراد وعرض عليه كل ما قال العلماء، فامتطى فرسه وحبس

جميع العلماء فى بيت الصوباشى واقتحم بيوت العلماء وأخرج كل ما فيها من أموال وأرزاق أمام الإمام الشافعى، وانعقد الديوان فى الصباح وسلم الإمام الشافعى الصوباشى كل ما أشار إليه، وقتل مائتين من مخالفى الإمام الشافعى من المتشيعين، كما أن مائتين آخرين تابوا وأنابوا؛ فجدد الإمام الشافعى مذهبه، وبسبب من هذا ظهرت كتب الإمام الشافعى واسترد المذهب الشافعى اعتباره.

والآن فى مصر ثلاثمائة من الحراس يحملون الهراوات فى يدهم ومعهم اثنا عشر جلاداً يفتحون بيت الصوباشى كل صباح ويحضر جميع خدامه ويدعون للإمام الشافعى على أنه برهم وسبب رفعتهم، ثم يتجول ليل نهار لتعرف الأحوال، ولا شك أنهم يجدون اللصوص والنشالين، وكل لقطاء مصر مقيدون فى دفتر الصوباشى. وإذا كان الصوباشى يحكم حكمًا مطلقًا فإنه بذلك يكون كالوالى، وكل المجرمين يخشُونه. وسواء كانوا مذنبين أو أبرياء قتلهم.

وهكذا كان هذا الرجل يستحل القتل كوسيلة لإصلاح العالم، إذ لم يكن فى الإمكان السيطرة على الفلاحين فى مصر، وكذلك مَنْ يدعون الولاية من مكحول العين، ومن يحمل على رأسه سبحة، والواعظ الذى يحمل المسواك، مظهرهم هذا دليل بلههم، ومشجع على اللصوصية والفوضى، والحاصل أن كل ما ليس شرعيًا يرتكبه علماء مصر حتى إنهم يبيعون ما أوقف منذ تسعين عامًا على أن هذا الوقف يتوارث أبًا عن جد، وهكذا تسرق جميع أوقاف الله، وكم من آلاف من دور القراء ودور الحديث والمدارس جعلوها بيوتًا وعليه فلا بد لمصر من حاكم جبار وإذا ما غلت الأسعار ( )[1] فإن هذا يظل فى يد الحاكم وبناءًا على قراره.

* * *

(١) بياض بالأصل.